محرم الحكيم الاجتماعي

بمناسبة مرور الأربعين على وفاته

للأستاذ ابراهيم عبد اللطيف نعيم

هي سنة واحدة قضاها احمد محرم في المدرسة ، أو على الأدق في مدرستين : المقادين الابتدائية ، فمدرسة الجيزة بالقاهرة ، بعد أن تلقى مبادئ القراءة والكتابة في مكتب قرية الدلنجات من أعمال مديرية البحيرة وحفظ القرآن الكريم في الثانية عشرة من عمره .

وبعد هذه السنة جاءه أبوه التركي المرحوم حسن افندي عبدالله بطائفة من علماء الأزهر يدرسون له النحو والعروض وسائر علوم العربية ، وعكف من ثم على التراث الأدبي العربي في مختلف عصوره دارساً وحافظاً . هذه هي دراسة الشاعر الأولى ، أو هذه هي مدرسته الأولى التي هيأته للشعر بقوله ... ومنها انتقل إلى المدرسة الأخرى ، مدرسة الحياة الكبرى التي كونته حكيماً اجتماعياً إلى أن انتقل إلى العالم الباقي ...

وللحكمة في قيثارة الشاعر وتر واحد ، عن هذا الوتر تصدر الحكمة والاجتماعيات في نغمة واحدة أو في أنغام مختلفة ... سهمان ينطلقان إلى هدف واحد ، هو تعمق الحكيم وشمول نظره ، وما يكون المرء اجتماعياً إلا لأنه حكيم ، وما يكون حكيما إلا لأنه اجتماعي .

وفي المدرسة الكبرى ، مدرسة الحياة راح الشاعر — من جديد — يدرس ويتعلم بالكثير من راحته ، وسكون نفسه واطمئنان باله ، وينفذ وراء بصره إلى أعمق ما تعرض الحياة من قضايا ، وما تكن زوايا البشر من خبايا ... كانت هذه الدراسة ، وهي قطعة من حياته ، أو هي حياته كلها — تأملاً ، وشعوراً يستحيل عند فيضانه إلى تعبير جلي قوي تتمشى الحرارة في ثناياه ، وتنبض الروح بين طواياه ...

وكان جل ما تعرض عليه الحياة ، تحت شجرة إلى جانب مقهاه الأثير في دمنهور أمام المحكمة الأهلية ، حسبه منها ، ومن الحياة ، أن تفيء عليه ظلها ساعات في الصباح ، ومثلها في المساء . لم يكن يحتمل جو المقهى إلا ريثما يأخذ الصحف والبريد بنظرة خاطفة ، يهتز بعدها من الضيق فيحمل كرسيه ويطلب إلى الانتقال إلى « شجرة العرش » باسما !

وننتقل إلى ظلال « شجرة العرش » لنراجع النفس فيما سمعنا ورأينا وعلمنا ، ثم لنسكت ، أنا في شأني ، وهو في تأمله الهادئ العميق .

وكثيراً ما كنت أستحضر فكرة ما — في موضوع الساعة ، لأحدثه بها ، فأتعقب ما لا أرى ببصري في الأرض وفي السماء . فكان يهز رأسه ويقول : قيدْ ما يحضرك . فإنه يقرها ساكنة ، حتى تطلبها فتجدها في مكانها « مقيدة » !

ورغم ذلك فقد كان رحمه الله على قوة في الإرادة ، ونفاذ في البصر ، ويقظة في الشعور ، إلى درجة ترجع نفسه من العمل بهذه النصيحة ، فكان أبدا على ثقة من العثور على « الفكرة » أو قل من « اصطيادها » ، أسمن وأغنى مما كانت حين سنحت له وخلاها ...

في ظل هذه « الشجرة » وهي كالمرصد للفلكي ، والمعمل للكيمائي ، جعل الشاعر « يصطاد » عناصر حكمته الاجتماعية ، ويتأمل في هذا النبع الفياض ، من نفسه ومن الحياة ويشعر به شعوراً قوياً جياشاً ، ثم يسوق تأمله وشعوره في حكمة هي الشعر ، وفي شعر هو الحكمة ، فيتقدم على كثير من الشعراء — أمام الناس جميعاً ، حكيماً اجتماعياً يضع أصبعه على أخطر الأدواء ، ويصف بالساحر من بيانه أنجع الدواء ...

وما أريد أن أعود بالقراء إلى يومه الأول لأعرض عليهم فنون حكمته فيه ، فلذلك مكانه من الكتاب إن شاء الله . وإنما أريد أن أعرض عليهم أبياتاً من قصيدة حديثه ، هي قصيدة العصر ، أو هي آلامه وآماله . .

وسبب هذه القصيدة — ومعذرة إلى القراء — مناظرة على صفحات « البلاغ » الأغر في حياة صاحبها المغفور له عبد القادر حمزة باشا عليه رحمات الله ورضوانه — بيني وبين صديقي الأستاذ محمد السرادى في « العبقرى ، في الثراء ، والزواج ، والحب » من هو العبقري ، وما شأنه ؟ قلت يومئذ إنه رجل طليق ، في الثراء والزواج والحب والحياة كلها ... أو أنه بشر فوق البشر ...

ورمى الشاعر ببصره فماذا وجد ؟ وجد الوسط الأدبي في مصر يزخر بطوائف من المخبولين والمعرورين والحالمين ... هنا يستنشق الأثير ، وثان يكرع الخمر الرخيص ، وثالث يتعاطى الأفيون ، ورابع يدخن الحشيش، وخامس يتمرغ في أوحال الرذيلة ، وسادس وسابع - باسم العبقرية ، أو وراء «أشباح العبقرية» كما يسميها جورج دهامل يجرى كل هؤلاء المرضى والضعفاء . ولم يقل أحد إن العبقرية صحة ، وصحيح — كما يقول المدافع عن الأدب — أن هذه السموم تولد عند آلاف البؤساء شعوراً ذاتياً بالعبقرية ، ولكنها لم تهب العالم البشرى كتاباً واحداً ممتازاً .

العبقرية تصيح كل يوم : « رباه ! رباه ! ... لم تركتني وحيداً » ! ؟

هذا هو العبقرى في رأى جورج دهامل الأديب الفرنسي ، وهذا هو أسلوبه ، فانظر إلى العبقرى في رأى شاعرنا الحكيم المصرى ، وهذا هو بيانه :

يقول القوم هذا عبقرى ... وذاك مثقف وأقول : واها !
عيوب العبقرية من قضاها ... وآثام الثقافة من جناها ؟
وهذا النور كيف تراه عيني ... ظلاماً يسلب الدنيا سناها ؟

بهذا البيان نفى حكيمنا الاجتماعى احد محرم ، من العبقرى والمثقف ما يحاول الجهل أو الخبل أن يلصقه بهما من عيوب وآثام ...

ولم يقف عند هذا الحد ، فنظر إلى الشعوب ماضياً وحاضراً ومستقبلا نظرة هذه ترجمتها في الحكمة شعراً :

أرى ملك الشعوب يقوم فيها ... على أخلاقها ، وعلى نهاها

ولنمض مع الشاعر إلى ما مضى إليه ... هي فكرة قرنها إلى فكر ، وحقيقة ساخرة تصيدها فقيدها بحقائق أخرى . قال :

رأيت نساءكم غلبت عليكم ... فأمسى الخزى قد وسم الجباها
عجبتُ لذى الخليلة راودته ... عن الشرف الرفيع ، فما عصاها
وللأب مال بابنته هواها ... عن السَّنن السوىّ فما نهاها

إنها جازع على أول وأهم ركن في المجتمع ... وأى خير في الأسرة إذا كان هذا حالها ، أو إذا انتهت إلى هذه الحال ؟ ولماذا لا ينعى دولة الرجال فيقول مقرراً في أسف وألم لا يحسن بهما غير الرجال :

وما عند الرجال قضاء أمر ... إذا قضت النساء على لحاها

وماذا بعد هذا مما يرضاه الحكيم الاجتماعى ؟ لا شيء إلا أن يقول :

برئت إلى المروءة من بلاد ... تبلد شيخها ، وغوى فتاها

ولكن هذا هو الداء ، فما هو الدواء ؟ هو أن :

أعيدوا الدين سيرته وشدّوا ... عرى الأخلاق إذ وهنت عراها
وردوا بالزواجر كل غاد ... إذا وضحت له السبلى أباها

فبهذه الوسائل مع الدين ، أو في الدين تعاد إلى الرجل دولته ، وتحل المرأة في محلها ، ويساق الأبناء إلى الجادة في أثرها ...

ولكن كيف ذلك وهو يقول ولا ينكر عليه أحد ما يقول :

لبئس القوم ما حفظوا كتاباً ... ولا عرفوا رسولا أو إلها

ولم يكن يقصد مصر وحدها ، فالعروبة كلها قصده ، وهذا العالم الإسلامى التراثى هو — كقصيدته — مجال آلامه وآماله ... لذلك يتساءل بعد هذا كله ولكل جوابه عليه :

وما تبغى العروبة من شعوب ... إذا ذكرت لشاعرها بكاها ؟

* * *

هذا هو « محرم الحكيم الاجتماعى » في أبيات من الشعر ، و« لشاعر العروبة » قصة ألمية ، محيرة ، في ديوانه « مجد الإسلام » نرجو أن نقدمها إلى الرأى العام في فرصة أخرى إن شاء الله .

(دمنهور) إبراهيم عبد اللطيف نعيم

صديقي القارئ

الكتب الآتية

ضرورية لثقافة فكرك ولسانك

		قرش
وحى الرسالة :	للأستاذ أحمد حسن الزيات	٤٠
آلام فرتر :		٤٠
رفائيل :		٤٠
دفاع عن البلاغة :		١٥

اطلبها من إدارة « الرسالة » ومن المكاتب الشهيرة